حول النقد الأدبي المعاصر

بقلم محيي الدين فارس

اصبحت الاعمال الادبية في عصرنا الراهن ، لا تقاس بقيمتها الجمالية البحتة ، الا اذا كانت اعلق بالتراث، والتراب، والانسان، لان حقائق هذا العصر المركب ، لا تعنى بالماورائيات . لا تعنى بالكلمات التي لا تحرك السكون، او تبث في العدم القديم دبيب الحياة ، الكلمات التي تتابى على حمل عذابات البشر ، واذا كان ابناء المسكونة مجموعة من الافكار والمشاعر المتحركة فان هذه الحركة ان لم تكن ذات غنى وخصوبة ، فانها تظل حركة عشوائية . تخثر دم الزمن الجاري في قنوات اعالي الفكر .. تدور ، ثم تدور في مدار مغلق .. مثل بندول الساعة الابله الذي يظل يهتز في قلب الليل الشتائي ، دون ان يتحرك الزمن في العقارب الدقيقة ..

فلسنا نقصد بالحركة « مطلق حركة » ولكننا نقصد الحركة التي تساهم في بناء « الان » وتنمية ابعاده الخالقة ، اما محاكاة حركة « ما كان » دون ربط واع بين شرائح التاريخ فان فيه تمويقا للحضارة الانسانية .. ان كثيرا من الاعمال الادبية تسقط في هذا الامتحان الذي تعقده حضارة الحرف في مشارف القرن، ليس يعنيني ابدا ان اقرأ لحظة من خليط العقل الباطن في تواقيع تمثال برنزي يمرر بجانب عيني آلاف السنين الاغريقية الفنانة ، او ان اقف عند لوحة تقول لي ان اعمالها تكمن وراء اختصار الابعاد في بساطة لونين ، احدهما منظور والاخر وهمي، او ان اقرأ اعمالا مطولة ممطوطة، وهي مغلقة امامي كقارات الجليد الساكنة في قلب القطب المتجمد ، دون ان تشفع لها تلك التذيلات المجلوبة من هنا وهناك .. لان عملية الاقناع ينبغي الا تأتي من خارج العمل الفني .. ولكن كل ذلك لا بأس به ـ ان تجاوزنا قليلا ـ شريطة ان تحملني تلك الاعمال على ممر ضيق ، يفضي بنا الى اعاشة شيء.. شيء يمس جلد الحقيقة النظيفة !

ان الاثار الفنية الخالدة تمر في قطار طويل ، لتترك انطباعاتها الازلية في ممرات التاريخ ولان هذه الاثار تحمل في تضاعيفها بذور الخلق اللامتناهي ، تظل تنوعا حياتيا يتلاءم مع البيئات النفسية المختلفة زمانا ومكانا ، فنحن مثلا نشاهد في فن العمارة ، اعمالا معجزة ، تتفق وذوق القرن العشرين العام . وبسياحة طويلة حول هذه الاعمال سوف نلمح اختلافا واضحا في اللمسات ، وطرائق التعبير، وتناول الاساليب الجمالية، فالعمارة الهندية سوف تثير فينا الاحاسيس الدقيقة بكثرة التلافيف ، والجزئيات المتشابكة والتعقيد الشبيه بالموسيقى الحادة ، التي تحكي لنا اسطورة عريقة على عكس العمارة الاغريقية التي تختصر كل ذلك معتمدة على البساطة والوضوح وقوة التناسق على ان كل واحد من هذين التعبيرين يحمل الاف الخصائص التي تركز طابعه الاصيل والعريق في التاريخ، الا انهما في الزمان والمكان يتحددان في تشكيلات جديدة تتطور دائما بعامل الاضافة ، والتعديل ، والتبديل احيانا ولكن بما لا يخرج عن ذلك الطابع ذي السمات والملامح المعينة .

ان من العبث محاولة الفكاك من اسر لوحة ، ذات خلق ديمومي بالرغم من اننا قد نقف في الجانب المقابل لترفض المضامين الجمالية ، بطرح مضامين جمالية اخرى ترقد في واعيتنا اللاقطة لعناصر ذلك النموذج « الوهمي » والبديل من ذلك النموذج المشاهد . ولكن لماذا يستبقينا هذا النموذج الاول معه لحظات من الزمان العريض ؟؟

ان « التفصيل » في الاعمال الفنية يختصر المسافة ، ويصبح العقل اكثر يقظة لانه يخرج من منطقة الضبابية المطلوبة ، وما دمنا نقرأ او نشاهد تلاخيص منضبطة فان انفعالاتنا ستظل راقدة غير آبهة بذلك النشاط الذهني ، الذي يدور في عالم بعيد عنها ..

والتفصيل ، تحديد .. وتسطيح لجو التجربة .. وهو في الوقت نفسه اختصار للزمان النفسي الذي يتيح لنا المعايشة ، لانه يعطينا كل ما يريد ان يقوله العمل الفني دفعة واحدة دن ان يعطينا الاحساس بمراحل ميلاده .

اننا نريد من الاثر ان يكون عريض المسافات .. فانا الح غموضا ضبابيا .. نوعا من الغموض .. منذ البدء ثم ابدأ احس بالوضوح، والضوء المتراوح كأني خارج من كهف افلاطون . لماذا ؟ لاننا نحس حقائقه الجمالية منذ الوهلة الاولى .. ثم نبدأ في امتصاص جزئياته شيئا فشيئا بعد ذلك .. كما لو كنا مقبلين على ميناء في البحر الابيض المتوسط في اخريات الليل والوضوح النهاري ، يسري ببطء وسط العتمات المقفلة ؟! وبعد ذلك يصبح الاثر لدينا مألوفا لانه لم يعطنا كل ما يريد ان يقوله دفعة واحدة . فنحن اذا نعيش مراحل ميلاده . ان الاثار الممتازة منذ القراءة الاولى التي تعيشها اعماقنا على شكل قنوات دقيقة ماصة لهذا الجو الوافد تنتقل الى مرحلة اخرى عندما نعيد تنظيم هذا الانفعال الاول لنجمع اكبر مقدار من الحيثيات والتبريرات . لننتقل الى مرحلة اخرى ايضا هي مرحلة التعقل لاننا في هذه الاثناء نجمع من جديد المواد الاولية التي كونت بنية العمل الفني ، في اناة ، ودقة، وحيطة تامة .

فالعمل الفني يجب ان يكون امامنا كمدائن مقفلة . نحن نشم من بعيد عطورا ، واخلاطا من الالوان الطيفية التي تعبر امامنا كشريط فرحي جميل ، ونلمح مخابيء كنوز دفينة ، حتى نتيح لشرطنا النقدي رحلة سياحية من الاحلام والرؤى في درب طويل، نحن لا نعرفه .. ولكننا نبدأ في معرفة معالمه شيئا فشيئا .

واذا قلنا ان الاثر الفني يشبه البارجة الضخمة التي تستسلم لايدي الملاحين والمهندسين في الاحواض العائمة ، وهي تستعد للنزول الى المحيط لاول مرة ، فان مهمة النقاد في هذه الحالة بالذات تصبح عملية شاقة ، لانهم بازاء مقدمات طويلة ، عمل كامل ، وعليهم ان يقيموا معادلات . ايضاح كل التفاصيل والجزئيات ليقنعوا القارىء المتلقي بأن هذا العمل يستحق التقدير . ومن هنا يبدأ تعب المداد في يد الناقد .. فالنتيجة المطروحة امامنا لن تستميلنا الى جانبها الا اذا تتبعنا المراحل البنائية ، مرحلة مرحلة . وعلى الناقد ان يقدم لنا كوبا من عصير الخلاصات التحليلية ، والناقد في هذه الحالة يظل مرصودا من ابراج مراقبة اخرى تحيط به من الثقافات المقابلة لدى الفنان الخالق والفنان المتذوق ، مرحلة متقدمة جدا لم نصل اليها في شرقنا الا عند بعض نقادنا الكبار ونحن نعدل اذواقنا ، او نضيف اليها حسب مستحدثات الحضارة واضافاتها المتوالية ، وانتقالاتها الكمية الى مجالات اخرى

مغايرة ، ونحن نضيف الى انه ليس هناك اعمال كاملة ، حتى في مجال العلوم التي تخضع للانضباط بعد تخطيها مرحلة « الفرض » ومن هنا يظل النقد محاولة .. مجرد محاولة نسبية لتقريب الحقيقة الجمالية .

ان ذلك الالحاح المستمر لكشف اكبر كمية من الاغطية لابراز جمالية العمل الفني هو ذلك البحث المستمر عن الانسان الثلجي المخبوء في ممرات جبال هملايا ، هو قص الاثر بدراسة الانطباعات العميقة في تضاريس النفس البشرية ! وليصبح الناقد على ارض صلبة لا بد ان يطرح مجموعة من الاقناعات ، التي تبادلها نفسية المتلقي وهي في منطقة عازلة .. هي منطقة « التعقيل » ايضا بمجموعة من التوضيحات والاستفسارات حتى تستطيع مناظيرنا اللاقطة ان تضع يدها على الاعمق .. وهي تبحث عن قضايا انسان العصر .. متجاوزة كل الخطوط والظلال الى كل ما هو قمة درامية ، تعيش المأساة عن قرب .. ومن ثم فان الناقد يوجد عندما تكون مناجم نفسه مترعة بالجمال والتجرد ، والهدوء المبدع المتامل ، لا بد من وجود هذا الصفاء الشفاف ، الذي يعكس المرئيات المجبولة من الوجود المادي والمتزاحمة في حجرة «التحميض» في عالم الفنان الداخلي . الفنان الذي يعيش هنا العصر المهول باعراقه ودمائه . ولان النقد في عصرنا هذا عملية لا متناهية . عصرنا هذا يطفر بلا سائق نحو البعيد واللامتوقع ، فهو اذا « يجب » ان يواكب الحياة في منحدراتها ومرتفعاتها بعدساته الدائرة معها . وهي لا تستقر على حال . لانها دائما تحاول اتخاذ الاوضاع المناسبة لاعطاء الحقيقة الجمالية اعطاء نسبيا ..

ان الاختلاف في تناول الاثر الفني حقيقة واقعة . ولذلك فنحن نرفض المنهجية الصارمة حين نتناول اثرا من الاثار الباقية ، فانا اترك العنان لنفسي الفنانة ، لتجد جانبا من ساحاتها مطمورة وراء بعد منظور في قاع صورة ، او حركة ، او ايقاعة او في تجاعيد انفعالية دبقة . تقول كل ذلك من خلال الحرف . الذي يترك ابوابه مفتوحة دائما لطرقات الاصابع الرقيقة واللمسات التي تختصر المسافات والابعاد، لان اذواقنا دائما صعود لنشدان الاعلى فالاعلى ، فان الانسان يقف في سفح جبل . فيحس بثقل الضوضاء الذي يغطي المدينة ، ثم يصعد الى مرتفع جبلي طماح الذؤابات . فانه يحس المدينة كلها عريانة امامه . وشتان ما بين الاحساسين ، والنقد لا يقول الحقيقة كما هي مجردة ولكنه يشير اليها بخلق بيئات تقريبية وتقديم حيثيات مستقراة من الجو النفسي العام . وبالتالي يحس القارىء المتلقي احساسا عفويا لا مفر منه بان اصابع خفية تشير اليه ، ان ذاك .. « هو برج ايفل » .

ان بعض الاثار الرمزية(١) تجعلنا نطرح فروضا قبل ان نحاول دخولها لاننا نجد انبهاما في معالم الطريق ، ولهذا فاننا نرفض المقاييس القبلية التي تلجم عفوية رحلتنا في بلاد الحرف لاننا حينئذ لن نترك لعيون حواسنا ان ترى الا المشاهد المجمدة .. والتي نضعها مثلا اعلى لمطاف رحلتنا ، ولكن لا باس ان نضع لكل عمل فني ، وبعد رحلة ضبابية مستغرقة ، وبعد احاطة وشمول كاملين ، لا باس ان نستخلص مقاييس وقواعد لم تكن نعرفها من قبل ولكن الاثر المطروح امامنا ... يجعلنا نصل اليها من مرحلة غائمة لا لونية الى مرحلة وضوح ووعي لان كل اثر يفضي الى حقيقة ما .. والحقيقة دائما في الفن النظيف متعبة لانها شريحة دسمة .. تعاش على مهل .. لانها تعني قيمة اساسية ، والجانب الجمالي هو الذي يوصل لنا حمولة هذه القيمة حين نستقبلها بجهازنا العصبي ونحن نبدأ في معرفة الخصوبة في المدى المرجى الذي يغزونا بالعطور المهاجمة ، واذا وقفنا موقفا عكسيا فاننا نصبح في حالة « لا ناقدة » لاننا لن نقول جديدا ، في الوقت الذي نعيد فيه على القاعدة الاسطوانية وجه الاسطوانة على الجانب الاخر ... ثم نعكس القضية مرات ومرات حتى يعتلنا السام الارسطاطالي .. ونحن غارقون في جدليات الشكل الرابع من منطقه القديم .

اذا قلنا مثلا ان القصة « يجب » ان يكون لها بداية ونهاية ووسط الخ.. واخذنا هذه المقاييس معنا ونحن نبحث عن البداية والنهاية في قصة جديدة اجمع النقاد على امتيازها وجودتها ، فان من الظلم البين ان نحشر القصة حشرا في داخل هذه الابعاد الثلاثة كيفما اتفق ، حتى تصبح مفصلة تفصيلا ثوبيا على هذا الهيكل «القبلي» المرسوم في مخيلتنا . هيكل الوسط والبداية والنهاية لاننا في هذه الحالة ـ وبعض نقادنا يفعلون ذلك ـ سنسلم بالامتياز المجمع عليه دون البحث عن كيف .. ولماذا .. لان الاجماع كفانا تبعة السير الطويل بسماعاتنا الطبية على مسارات مسام هذا الجسد الفني.. لنضع تقاريرنا النهائية .. ويبدأ الناقد من نقطة الانتهاء .. ليقنع نفسه بانه ينبغي ان ينتقل الى مرحلة الدلالة ... على الامتياز . احب الا رفض الناقد.. القواعد والمقاييس المستخلصة من دراسة اثار الخالدين ولا باس ان يستانس بها في دراساته ... فربما جاء اثر فني جيد يعطي مقاييس وقواعد تذوقيه اخرى غير ما هو متعارف عليه ..

اننا نهدم .. ثم نبني .. لاننا نملك طاقات مخزونة من «الكهربائية» التي تعطي للحياة مدلولا ايجابيا .. واذا ما فرغت تيارات هذه « الكهربائية » التي لا يخلو منها كائن حي.. فان الزمان يدركه التفضن بفناء خلاياه النشطة ، والحياة تموت.. وتخفت حركات المراوح في عجلة الحضارة .. وذلك ما لن يكون ..

ان كثيرا من الاقلام الناقدة تدركها الشيخوخة بسرعة مذهلة ، لا.. لانها فقدت المادة الخام ولكن لان الزمن يسرع باقصى سرعته .. فاليوم الذي نعيشه ، يدخل في منطقة الماضي بمجرد غروب الشمس ، ان عقل القرن العشرين باتساع الافق وعظمة الافلاك لا يهدأ.. كما لو كان

(١) راجع قصيدة الشخص الثاني لنازك الملائكة وقصيدة اليقظة للتيجاني يوسف بشير « ديوان اشراق »

شعر

من منشورات دار الاداب

قرارة الموجة	نازك الملائكة
وجدتها	فدوى طوقان
وحدي مع الايام	فدوى طوقان
اعطنا حبا	فدوى طوقان
العودة من النبع الحالم	سلمى الجيوسي
عيناك مهرجان	شفيق معلوف
قصائد عربية	سليمان العيسى
الناس في بلادي	صلاح عبد الصبور
مدينة بلا قلب	احمد عبد المعطي حجازي

دار الاداب

بيروت ـ ص.ب ٤١٢٣

انفجارا متواليا ، او حركة مخيفة في اعماق فرن ذرى وعلى النقد ان يواجه كل الاحتمالات القادمة .

ان هناك .. حقائق جمالية لا تعني هذا العصر الجريء بمقدار ما تعنى عصور ما قبل التاريخ تلك المسلات الجميلة التي نحس نحوها بحنين غريب جانح نحو الماضي السحيق ، والتي تعيش المجال المحلي لا تتعداه باي حال من الاحوال الى مسامع وهران وارض اورشليم ومغارب موزنبيق ورديسيا والصراعات العنيفة الاخذة بخناق جنوبشرق اسيا ، هذه الحقائق السالفة ما تزال تعيش معنا ، كانسان الغابة المجلوب من « جاوا » وغابات الانهار العليا في القارة .. لتزيين حدائق الحيوان في العالم ، ان النقد مرتبط بالحياة ، وعلى النقد ان يعين نوعية الحياة التي يريد ، والمسار الذي يود السير في مضماره . ان العقل النقدي مكلف ، في عصر الملكوت الفضائي ، ان يجتاز معابر النسيج اللحمي ليجس العظام والفضاريف اهي محملة بسل الحضارات المنسحبة ، اهي خروعية التجاويف ام ما تزال قوية سليمة ومن هنا تكون مسؤولية الناقد ..

ان الفصل بين ما هو ايجابي ، وبين ما هو سلبي ، هو تمرد خلاق على معوقات سير التاريخ فالمضامين القديمة بعضها يماشي الزمن بتحوله ... لانه كان منذ البدء تعبيرا عن حركة تطور ، فهو ذا اتصال اخر مصب بمصب نهر جديد .. ومن ثم تنشط خلاياه ، وتتفتح مسامه لامتصاص اكبر كمية من دم الحياة الشابة ، وبعضها يظل ميتا حيث هو في مكانه ، مثل بضع صبارات متوحدات في نتوء جبل !

على ان هذه المضامين ان لم تكن في حالة منتقلة فانها مدفوعة الى ذلك بحكم التطور التلقائي بمعنى انها اما ان تتكيف مع هذه البيئة الطارئة ، واما ان تخلى السبيل لدوامات الحياة المنطلقة في سيمفونية رائعة ، لان التيار يدفع في طريقه دائما حتى الصخور القابعة في مدافن التراب ، وتبعا لذلك تخلع الفنون .. جميع الفنون اردیتها القديمة ، لترتدي اردية اخرى تلائم جو الطقس الوافد ، فالكلمة ترسل لا لتكون مجرد وعاء تعبيري يحمل شحنة اثيرية سرعان ما تمتصها طواحين الهواء ، ولكنها ترسل لتكون زادا ثقافيا ينمي الاحساس بالزمن وبقيمة الحضارة الانسانية .

على ان هذه المضامين الجديدة لا تحقق ذاتها بمجرد تقمصها روح العصر ، فلا بد من ايجاد مضايق تصفي علائق التيار ، المندفع دون تعويق للعضوية المطلوبة في مجال الخلق والابداع فما اكثر المضامين الجديدة التي تعود بحزم الضوء الى بيوت العنكبوت لتعكس ضوءا عنكبوتيا واهنا !

ينبغي الا نركز اهتمامنا على بضع الفاظ ، هي في وهمنا القاصر مفاتيح العمل الفني ، لنطبق عليها مجموعة من الاراء والتاملات التي استخلصناها في رحلاتنا التذوقية ، لان النتيجة هنا ستكون ابراز مهارة الناقد في ادارة فن المجادلة ، لانه في المحل الاول يضع اهتمامه على تطبيق هذه التجميعات التي عندة كيفما اتفق ، اما الاثر المطروح امامه فهو بمثابة الانابيب التي توصل الشحنة التي عنده كعملية لحمولته تلك .. وبالتالي يغدو الاثر المطروح كالعوارض الخشبية التي توضع على قدم الشاطىء وفوق شفة الحاجز السفيني ... مجرد ممشى لافكار الناقد الهمام .

ينبغي ان تكون هذه الالفاظ خصبة مشعة غارقة في مناخها النفسي ، تعطي عطاءها الجمالي الذي يعطي عطاء جماليا ... مغايرا كل المغايرة .. بمعنى ان نقف امام تمثال مرمري عريق .. فيفتح لي ذلك التامل العريض مجالات اخرى.. كان انتقل توا الى استمرار التذوق بشكل اخر في قطعة موسيقية لموزار مثلا كنت اسمعها امس في جوف الليل .. وانا احاول حل معادلة رياضية جافة .

وبعد .. ان النقد عندنا ما يزال . تجربة فاشلة . فهو اما هجوم سوقي نازل ، يعتمد على اثارة الجوانب الشخصية المفتعلة ، واما اماديح مسهبة ... ليست فيما مستخلصة من بنية العمل الفني نفسه بمقدار ما هي نتاج العلاقات الشخصية ، وكلا النمطين يمكن اضافته الى فنون القول الاخرى.. القديمة .. المدح والذم ، دون ان يمت واحد منهما الى النقد بمعناه المتعارف .. وبطبيعة الحال نحن نستثني في هذا المجال .. الاقلام المخلصة التي ساهمت في بناء الكلمة الناقدة البناءة. ان رصيد الحب الصفاء ... والشفافية والتجرد عصب الحياة والبقاء بالنسبة للناقد .. حتى تصبح كلماته الملقاة بعد ذلك ذات وزن وكثافة .. ان تكون رسائل صداقة واشواق تقول لذلك الوتر الحاد ينبغي ان تقيم بينك وبين ذلك الوتر المقابل حلف صداقة وانسجام . ان الوصول الى ذلك المرتفع الهائل هو محاولة الوصول الى اعالي « افرست » ولن يتاتى ذلك الا لذوي الحس المتفتح الذين يستقبلون في الاثر الفني اللحظات القممية . والتي هي خلق لا يقبل التكرار (*)

محيي الدين فارس

(*) محاضرة القيت في « دار السودان » بالقاهرة بدعوة من لجنتها الثقافية

هيروشيما ... حبيبي

مأساة الحرب .. والحب !

قصة رائعة بقلم مارغريت دورا اخرجت في فيلم ما يزال يثير حتى اليوم ضجة كبيرة في اوساط العالم ويشهد اقبالا لم تعرفه الا افلام رفيعة نادرة .

ولم يسبق لقصة ان عبرت كهذه القصة تعبيرا دقيقا رائعا عن الصلة التي تربط بين الحب والحرب من حيث عنصر الفاجعة .

والواقع ان المؤلفة قد وفقت توفيقا كبيرا في رسم نفسيتي الرجل الياباني والمراة الفرنسية اللذين يعيشان هذه المأساة : مأساة الحرب .. والحب !

الثمن ١٥٠ ق.ل **منشورات دار الاداب**